المقامات البلاغية للتنكير عند الملائكة
في القرآن الكريم

إعداد الدكتور

محمــــد بن عامــر الصويــغ

أستـــاذ الأدب والنقـد المشارك بقسم اللغة العربية

جامعة الأمير سطام، المملكة العربية السعوديـة

المقامات البلاغية للتنكير عند الملائكة في القرآن الكريم

محمد بن عامر الصويغ
قسم اللغة العربية، جامعة الأمير سطام ،المملكة العربية السعودية
البريد الإلكتروني: aboameer3000@hotmail.com

الملخص

يتناول البحث ظاهرة التنكير في خطاب الملائكة الوارد في القرآن الكريم، من خلال الوقوف على المقامات التي ورد فيها التنكير، وملاءمة التنكير لهذه المقامات، وإبراز الظواهر الأسلوبية التي حملها التنكير ومحاولة الإفادة منها. ويهدف البحث إلى إبراز مكانة الملائكة الكرام بلاغيا وحسن خطابهم من خلال دراسة ظاهرة التنكير، والوقوف على أبرز المقامات التي ورد فيها التنكير وملاءمته لهذه المقامات، ومحاولة استنباط الظواهر الأسلوبية للتنكير في خطاب الملائكة.

أهم النتائج: أن الملائكة الكرام قد امتازوا بحسن الخطاب كما ميزهم الله تعالى بحسن الخِلْقة، وأن لهذه البلاغة عدة مسببات، وأن التنكير من أبرز الظواهر البلاغية لخطاب الملائكة في القرآن الكريم، وأنه أكثر ما يرد في سياق المبشرات من الملائكة للأنبياء وغيرهم.

أهم التوصيات: ضرورة إقامة الدراسات المفصّلة لأساليب الملائكة في القرآن الكريم، واستنباط الظواهر الأسلوبية التي يمكن توظيفها في الخطابات الاجتماعية، كما ينبغي دراسة الظواهر البلاغية كالتنكير بالنظر إلى سياقه العام والخاص، وعدم الاكتفاء بالنظرة الجزئية التي لا تكشف إلا جزءًا من المعنى.

الكلمات المفتاحية: التنكير – الملاءمة- الملائكة – المقامات البلاغية.

The Rhetorical *Maqāmat* of undefining Angels in the Holy Qur'an

By: Mohammed Bin Amer Al- Soweigh
Department of Arabic Language
Prince Sattam University
Kingdom of Saudi Arabia

Abstract

This research handles the phenomenon of undefining the angels in the discourse included in the Holy Qur'an by specifying the maqāmahs where undefinability is present to see how far such undefinability suits these instances and to highlight the stylistic phenomena contained in such undefinability, and make use of them. In addition, the research aims at exposing the rhetorical status of the honored angels and their good discourse through studying the phenomenon of undefining the angels and discussing the most outstanding spots where such phenomenon is present, how far it suits their places and the style of undefineability of the angels. By the nd of the rsearch, the researcher has drawn attention to some important findings. For example, the angels are remarkable for their distinguished discourse as well as their splendid physical appearance. Moreoveer, this rhetoric is based upon many principles; undefinability is one of them. It is the most apparent rhetorical phenomenon which characterizes the discourse of angels in the Holy Qur'an. It is also present in the glad tidings discourse of angels about prophets and others. The research has also recommended running detailed studies which focus on the styles where angels are mentioned in the Holy Qur'an, specifying the stylistic phenomena that can be utilized in social contexts. Rhetorical phenomena such as undefinability should also be studied with referrence to its general and specific contexts; disregarding any minor viewpoints as they only handle a minor portion of the menaing.

Keywords: undefinability, suitability, angels, rhetorical Maqāmat.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن دراسة القرآن الكريم توقف الباحث على كثير من الأساليب البلاغية العالية التي لا يبلغها البشر، ولذا كان القرآن الكريم المعجزة الباقية الشاهدة بوحدانية الله وقدرته وعلوه على خلقه.

ويأتي هذا البحث ليسهم في الكشف عن بلاغة القرآن الكريم في حديثه عن الملائكة الكرام الذين شرّفهم الله بالمقام العالي في خَلْقهم وخُلُقهم وفِعلهم وخِطابهم، ويتجلى ذلك في آيات كثيرة تحدثت عن هذا الخَلْق العظيم الذين لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون.

وحين تأملتُ الخطاب الملائكي وجدت للتنكير حضورا بارزا في كثير من الآيات، ولاريب أنّ لذلك أسرارا ودلائلَ لمن تأمل في السياق وأمعن في جو السورة التي ورد التنكير فيها ، ولذا حاولت في هذا البحث الكشف عن هذه الظاهرة ودراستها والوقوف على بعض أسرارها البلاغية ودلائلها المعنوية.

موضوع البحث:

يتناول البحث ظاهرة التنكير في خطاب الملائكة الوارد في القرآن الكريم، من خلال الوقوف على المقامات التي ورد فيها ، وملاءمة التنكير لهذه المقامات، وإبراز الظواهر الأسلوبية التي حملها التنكير ومحاولة الإفادة منها.

مشكلة البحث:

تكمن مشكلة البحث في عدة تساؤلات: هل الملائكة الكرام يمتازون ببلاغتهم كما يمتازون بخلقتهم؟ وهل لهذه البلاغة الملائكية مسببات دفعت إليها؟ وهل للتنكير الوارد في خطاب الملائكة كثيرا سمات بلاغية وخصائص أسلوبية ليقف عندها الباحث؟

أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث في دراسة بلاغة خَلْق ميزهم الله تعالى واختصهم من بين خلقه بمهام

جليلة وخلقة عظيمة وأثنى على خطابهم، وتبرز الأهمية من وجه آخر يتمثل في دراسة ظاهرة محددة (التنكير) وربطها بالسياقات الخاصة والعامة، ومحاولة الخروج بالخصائص الأسلوبية التي يمكن الإفادة منها في الخطابات العامة.

أهداف البحث:

أولا: الوقوف على بلاغة الملائكة الكرام عليهم السلام.

ثانيا: إبراز مسببات البلاغة العالية في خطاب الملائكة.

ثالثا: دراسة أسلوب التنكير في خطابهم، والوقوف على الظواهر الأسلوبية لهذا الخطاب.

منهج البحث:

تقتضي طبيعة البحث أن أسلك المنهج الاستقرائي الوصفي القائم على تتبع الظاهرة البلاغية، المصاحب للوصف والتحليل والدراسة.

حدود البحث:

يتناول البحث أسلوب التنكير عند الملائكة الكرام في القرآن الكريم، مع دراسة السياقات الخاصة والعامة في السورة نفسها أو في سور أخرى لها علاقة بالنكرة الواردة عند الملائكة.

إجراءات البحث:

أولا: وقفت مع بلاغة التنكير وفضله ومزيته في الكلام وأبرز المعاني التي يرد لها.

ثانيا: حصرت الأسباب التي هيأت لبلاغة الملائكة الكرام عليهم السلام.

ثالثا: جمعت الآيات التي تحدثت عن الملائكة عليهم السلام.

رابعا: استخلصت منها الآيات التي جاءت على لسان الملائكة.

خامسا: حصرت المقامات التي ورت فيها هذه الآيات.

سادسا: درست ظاهرة التنكير في هذه الآيات التي جاءت على لسان الملائكة.

سابعا: استخلصت الظواهر الأسلوبية التي حملها التنكير.

الدراسات السابقة:

لم أجد حسب اطلاعي على بحث أفرد بلاغة التنكير عند الملائكة الكرام عليهم، أما الحديث عن بلاغة التنكير عموما فمبثوث في كتب البلاغة قديمها وحديثها، إما دراسته مفردا أو

ضمن أحوال المسند والمسند، وأما الآيات التي تخص الملائكة فهي كذلك تدرس ضمن سياقها في كتب التفسير والبلاغة ولم تفرد بدراسة .

الجديد:

حاول البحث أن يطرق أبوابا جديدة تتمثل في إبراز مسببات البلاغة العالية عند الملائكة الكرام، وكذلك دراسة ظاهرة (التنكير) في الآيات التي تخص الملائكة دراسة سياقية واسعة وشاملة للنكرة في مواضع متعددة للمقارنة والموازنة، ومن جديد البحث الوقوف على الظواهر الأسلوبية التي احتفت بالتنكير وطرق الإفادة منها في الخطاب وبناء النص.

خطة البحث:

قسّمت البحث إلى مقدمة وتمهيد وثلاثة فصول وخاتمة، على النحو الآتي:

المقدمة وتشتمل على: موضوع البحث ومشكلته وأهميته وأهدافه والمنهج المتبع في الدراسة وحدود البحث، وإجراءاته والدراسات السابقة والجديد الذي قدّمه البحث.

التمهيد، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: بلاغة التنكير.

المبحث الثاني: بلاغة الملائكة عليهم السلام.

الفصل الأول: السياقات البلاغية للتنكير عند الملائكة في القرآن الكريم.

المبحث الأول : التنكير في سياق الثناء على الله ﷻ وتعظيمه.

المبحث الثاني : التنكير في سياق الحديث عن يوم القيامة.

المبحث الثالث: التنكير في سياق التبشير والتحذير .

الفصل الثاني: الظواهر الأسلوبية في خطاب التنكير عند الملائكة.

المبحث الأول : تكاثف النكرات.

المبحث الثاني : تصاعد النكرات.

المبحث الثالث: التلاحم التنكيري.

الخاتمة والمراجع وفهرس الموضوعات.

التمهيد

المبحث الأول: بلاغة التنكير:

يرى النحويون أن النكرة تدل على الشائع في جنسها[١]، ولذلك جعلوها قسيمة المعرفة، وهي كذلك ، فإن المتلقي إن سمع نحو: (جاء رجل ..) لم يخطر بباله رجل بذاته، بل يصح أن تصدق على أي رجل، أما إن أُضيف إليها الألف واللام فعندئذ يتطلب لها العقل مقصودا يتوجه له الكلام، وهذا التطلب تارة يعتمد على العهد الذكري أو الحضوري أو العلمي[٢].

والنكرة فصل عام في مقابل المعرفة التي هي فصل خاص في جنسها، قال ابن يعيش: "والنكرة هي الأصل فهي سابقة؛ لأنها اسم الجنس الذي لكل واحد منه مثل اسم سائر أمته، وضعه الواضع للفصل بين الأجناس" [٣].

فالنكرة فصل بين الأجناس المختلفة فإذا قلت: رجل، فصلت النكرة عن سائر الأجناس التي لا تدخل تحت (رجل)، أما المعرفة فإنها تفصل بين أفراد الجنس الواحد، وهذا ينبغي استحضاره عند تحليل النكرات والمعارف؛ لأنه جزء من الدلالة .

يقول د. أحمد مطلوب:"والنكرة متكثرة الأشخاص، يتقاذف الذهن من مطالعها إلى مغاربها، وينظرها بالبصيرة من منسمها إلى غاربها[٤]، فيحصل في النفس لها فخامة وتكتسي منها وسامة، وهذا فيما ليس لمفرده مقدار محصور بخلاف المعرفة فإنها لواحد بعينه، يثبت الذهن عنده ويسكن إليه ، فالتنكير يجيء لفائدة يقصر عن إفادتها العلم "[٥]

ومما يميز النكرة تقابل دلالاتها، فهي حينا تدل على التقليل، وحينا تدل على التكثير، وحينا تدل على التعظيم، وحينا تدل على التحقير، وهذا يعكس الاتساع الدلالي للنكرة، ويدفع الدارسَ إلى بسط نطاق التحليل حتى يقف على الدلالة الملائمة للمعنى الذي رامه المتحدث،

---

(١) انظر: المقتضب للمبرد ٢/ ٣١٠، وشرح المفصل لابن يعيش ٣/ ٣٤٧

(٢) انظر: ضياء السالك إلى أوضح المسالك للنجار ١/ ١٨١ ، وانظر: شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب لابن هشام: ١٩٥

(٣) شرح المفصل لابن يعيش، ٣/ ٣٤٧

(٤) المنسم: طرف الحافر، والغارب: كتف البعير، انظر: فقه اللغة للثعالبي: ٣٢-٨٣

(٥) أساليب بلاغية د. أحمد مطلوب : ١٥٥-١٥٦

والسياق الذي قيل فيه .

يقول د. أحمد مطلوب:"وقد يظن ظان أن المعرفة أجلى فهي من النكرة أولى، ويخفى عليه أن الإبهام في مواطن خليق، وأن سلوك الإيضاح ليس بسلوك للطريق خصوصًا في موارد الوعد والوعيد والمدح والذم اللذين من شأنهما التشييد، وعلّة ذلك أن مطامح الفكر متعددةُ المصادر بتعدد الموارد"[١] فالنكرة تحسن في موضعها كشأن أساليب الكلام الأخرى، والنكرة من ضروب الإبهام التي تطلق العنان فتذهب معها النفس كل مذهب، ولها معان أخر كالتحقير والتقليل والتعظيم التي يدل عليها سياق الكلام .

ولذلك ينبغي أن تدرس الأساليب على اختلافها دراسة تفصيلية لاستخراج الملامح البلاغية، وأن تكون الدراسة ضمن السياق لا منفصلة عنه، فإن التنكير كغيره قد عانى من الدراسة الجزئية المتبورة العجلي التي يقرن فيها المثال بالغرض، فيقال مثلا: التنكير هنا لغرض التعظيم، دون إبراز للمسلك الذي نحاه التنكير حتى أظهر معه التعظيم، ولذا يقول د.وليد قصاب: " للتنكير أغراض بلاغية ومعان ذات دلالات إيحائية خاصة تفهم عادة من سياق الكلام ، ويستعان على معرفتها بقرائن القول"[٢].

ومعاني التنكير لاتقف عندما ذكره المتقدمون، بل ربما يظهر للمتأمل معانٍ جديدة تتناص مع سياق الكلام ومراد القائل، يقول أبو موسى: "إن التنكير معنى شامل وعميق وصالح لأن يتولّد منه معان كثيرة، وذلك إذا أجراه في التعبير بصير بأحوال الكلمات خبير بسياسة التراكيب، وقد أكّد عبدالقاهر على أن المهارة والبراعة في إشباع هذه الخصوصيات بالمعاني والإشارات هي التي بها يستحق الشاعر الفضل"[٣] .

ولذا حاولت في هذا البحث عند دراسة ظاهرة التنكير أن أقرن النكرة بسياقها القريب والبعيد، وذلك يشمل المعنى العام للآية وعلاقة النكرة به، والمسالك التي انتهت إليها النكرة في حمل معنى التعظيم أو التحقير أو غيرهما.

(١) أساليب بلاغية د. أحمد مطلوب: ١٥٥

(٢) البلاغة العربية (علم المعاني): ١١٣

(٣) خصائص التراكيب: ٢٥٠ ، وانظر: دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني: ٢٨٨

المبحث الثاني: بلاغة الملائكة عليهم السلام:

اختص الله ﷻ الملائكة عليهم السلام بالحظوة والإكرام، وأنعم عليهم بالبلاغة وحسن البيان، ولعل ذلك نابع من عدة عوامل ألمح القرآن الكريم إلى بعضها في حديثه الواسع عن هذا الخَلْق الكريم الذين لا يسبقون ربهم بالقول ويفعلون ما يؤمرون، وهم كِرام بررة، صان الله فعالهم عن الزلل: ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ التحريم: ٦ وصان لسانهم عن الخلل: ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴾ الأنبياء: ٢٧.

ولعل من بواعث بلاغتهم:

أولاً: مشافهتهم لله ﷻ، فقد كلّف الله الملائكة عليهم السلام بأعمال ذكر القرآن الكريم بعضها، ومنها إنزال الوحي الذي يتولاه جبريل عليه السلام وهذا يستلزم مشافهة الله تعالى لهم، فالله ﷻ يخاطبه بكلامه الكامل الذي لا يلحقه نقص ولا عيب، لأن كلامه من ذاته، ولا ريب أن هذه المشافهة ينعكس أثرها على خطاب الملائكة، وقد ثبت في الحديث تأثر جبريل عليه السلام لقربه من الله ﷻ وكلامه له، ففي حديث الإسراء يقول النبي ﷺ: "مررت ليلة أسري بي على الملأ الأعلى فإذا جبريل كالحِلْس[1] البالي من خشية الله"[2].

وخُص جبريل بهذه الهيئة لأنه من أكثر الملائكة مشافهة لله تعالى، كما يدل عليه ظاهر الحال، وكون جبريل عليه السلام رسول السماء لأهل الأرض، وقد جاء التصريح بهذه المشافهة في حديث: " إن الله إذا أحب فلاناً نادى جبريل فقال: يا جبريل إني أحب فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء فيقول: إن الله يحب فلانا.."[3].

وإذا كان إدمان النظر في كلام رب البشر يزيد اللسان فصاحة وبيانًا فكيف بالحديث المباشر مع الله جل في علاه، إنه أشد أثرا وأبقى، ولذا فإن من أسباب بلاغة النبي ﷺ أنه مؤيد بالوحي من الله: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ النجم: ٣ - ٤.

وإذا كان من طرق العرب في إكساب اللغة أن يرحلوا بأبنائهم إلى ديار البادية الذين لا تزال

(١) الحلس كساء يبسط ويفرش في أرض البيت، انظر: الصحاح للجوهري: ٣/ ٩١٩

(٢) رواه الطبراني في المعجم الأوسط برقم (٤٦٧٩)

(٣) رواه البخاري برقم (٦٠٧٠) ومسلم برقم (٢٦٣٧)

ألسنتهم فتية، فيشافهونهم لتنطلق فصاحتهم[١]، هذا في حق مشافهة البشر فكيف بمشابهة الله ﷻ.

ثانياً : حسن خلقهم وفعالهم ، فالله ﷻ خلقهم من نور[٢] ، وخلقهم على هيئة عظيمة ، فجبريل له ست مئة جناح ، كل جناح يغطي الأفق ، وقد رفع بطرف جناحه قرية بأكملها وقبلها[٣] ، ولما استغاث الرسول ﷺ في بدر أمدّه بالملائكة الذين يردف بعضهم بعضاً ، وأوحى الله إليهم أن اضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ، ولا يكتمل هذا الخلق العظيم إلا بحسن بيانهم وقوة عبارتهم؛ لأنه الوجه الأبرز الذي ينطق بعظمتهم ويترجم عن عزتهم .

وينضاف إلى ما تقدم حُسن فعالهم فهم كرام بررة ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون، وهم الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ولذا لما رأى النسوة جمال يوسف عليه السلام استحضروا صورة الملائكة الكرام: ﴿ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ يوسف: ٣١.

فهم كرام بررة، صادقون يتخيرون أطايب الكلام ، وتتحرك ألسنتهم بالطهر والصفاء الذي يلائم كرمهم وبرهم، وقد ركّبه الله فيهم وجعلهم أتقياء يسبحونه ويستغفرونه كحال الملائكة حملة العرش الذين قال القرآن فيهم : ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ غافر: ٧.

ثالثاً : حضورهم المقامات العالية : وهذا فرع عن قربهم من ربهم فهم يشهدون مقاماتٍ عالية يتكلم فيها الرب ﷻ ويأمر وينهى ويدبر، ولا يليق بمن يحضر هذه المقامات إلا أن يكون على قدر عال من حسن البيان وبلاغة الخطاب، فهم في حضرة الله تعالى : ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴾ الأنبياء: ٢٧ وهم في هذه المقامات يسبحونه ويحمدونه ﴿ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ البقرة: ٣٢ ومن أبرز المقامات التي حضرتها الملائكة :

---

(١) كما حدث للنبي ﷺ الذي استُرضع في بني سعد، انظر السيرة النبوية لابن كثير ١/ ٢٢٥

(٢) انظر: تفسير ابن كثير، : ٩/ ١١١

(٣) انظر: تاريخ الطبري ١/ ٣٠١

أ – خلق آدم عليه السلام: ودار فيه حوار صـريح مع الملائكة، وفي هذا المقام العالي كانت بداية انتقال العنصر البشري إلى الأرض واستخلافهم فيها[١] .

ب – صـريف الأقلام : وهو صـوت ما تكتبه الملائكة عليهم السـلام بأقلامها من أقضـية الله تعالى ووحيه أو ما ينسـخونه من اللوح المحفوظ أو ما شـاء الله من ذلك[٢] ، وهذه الكتابة تكون لمقادير الأشـياء كما يأمر به الله ويشـاء ، وقد ذكر النبي ﷺ هذا المقام العالي للملائكة الكتبة حين عُرج به إلى السماء ، يقول:" ثم عرج بي حتى وصلت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام "[٣] وهذا يدل على أن المقام قد بلغ الغاية في الارتفاع بدلالة (حتى) وفي هذا المقام العالي فُرضـت الصـلاة ، فهي فريضـة عالية القدر، وفي مكان عالي المكانة ويحضـره كرام الملائكة الذين يتلقون مباشرة من الله تعالى .

ج – مجالس الذكر : التي هي رياض الجنة في الدنيا ، فإن من الملائكة من يسـيحون في الأرض ليحضـروا مجالس الذكر ، فإذا وجدوها تنادوا وجلسـوا يسـتمعون في ملأ يحظى بذكر الله ، وتدار موائدهم على تنزيه الله وتقديسـه[٤] ، ولا ريب أن حضـور مثل هذه المجالس يزيد في الفصـاحة والبيان ؛ لأنها قائمة على الاسـتماع، والاسـتماع يصـب على اللسان فصاحة وبيانا.

(١) وقد جاء ذلك في سورة البقرة من آية ٣٠ حتى ٣٣

(٢) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن رجب ٢/ ٣١٨ ، و انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٣/ ٢٥

(٣) رواه البخاري برقم (٣٣٤٢)

(٤) رواه البخاري برقم (٦٤٠٨)

الفصل الأول

السياقات البلاغية للتنكير عند الملائكة في القرآن الكريم

السياق ركن مكين في بناء النص، ولذا عني به النقاد والبلاغيون، ولا يتراءى الجمال دون النظر في السياق المقالي والمقامي، فالمقالي سياق لغوي تنتظم فيه التراكيب اللغوية وتتجه نحو غاية واحدة ، تتظافر الأدوات اللغوية والفنية لتحقيقها ، أما المقامي فإنه الحدث والوعاء الذي قيل الكلام فيه ، والمقام هو ظرف القول، ولكل مقام مقال، وتختلف المقالات تبعا لاختلاف المقامات، يقول السكاكي:" لا يخفى عليك أن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام الشكر يباين مقام الشكاية، ومقام التهنئة يباين مقام التعزية.. ولكل من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر، ثم إذا شرعت في الكلام فلكل كلمة مع صاحبتها مقام، ولكل حد ينتهي إليه الكلام مقام"(١).

والسياقات القرآنية التي جاءت في الحديث عن الملائكة عليهم السلام تمتاز بعلو مقامها وعظيم شأنها وخطرها، وتلك العظمة ملائمة لعظيم خلقهم وعلو منزلتهم وشرف الأعمال التي وكلوا بها، والمقامات التي يشرفهم الله بحضورها كما سبق الحديث عنها.

وسأتناول ههنا الآيات التي ذكرت خطاب الملائكة لا مجرد ذكرهم أو وصفهم، فإن الآيات ربما تشير للملائكة أو تنوه بمنزلتهم أو تدرج اسم أحدهم في سياق المتعاطفات دون خطاب أو حوار يخصهم كما في قوله : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ ﴾ آل عمران: ١٨ فمثل هذا السياق لا يقصد بالدراسة هنا؛ لأن الآية تنويه بذكرهم وتشريف بوصفهم دون ذكرهم حديثهم.

ودراسة أحوال اللفظ من جملة دراسة السياق؛ فإن الجملة تتكون من عِدّة ألفاظ تتظافر لتكوّن الدلالة التي يرغب المتكلم في الإبانة عنها، ولا يتصور دراسة السياق والتراكيب بمنأى عن دراسة الألفاظ التي جاءت في تضاعيفها، ولهذه الألفاظ أحوال متنوعة منها التنكير والتعريف والتقديم والتأخير وغيرها ..

وإذا تقرر ما تقدم فإن دراسة النكرة لابد أن تكون ضمن سياقها، ولما كان البحث منصبا

(١) مفتاح العلوم للسكاكي : ١٦٨

على خطاب الملائكة صار لزاما أن نستعرض هذه السياقات التي ورد فيها التنكير، لنقف معها ونجلّي بلاغة التنكير الوارد فيها.

المبحث الأول : التنكير في سياق الثناء على الله ﷻ وتعظيمه :

الملائكة لقربهم من الله ومعرفتهم به أشد المخلوقات له خشية، وقد جلّى القرآن الكريم ذلك، وبين أن الملائكة لا يسبقونه بالقول ويفعلون ما يؤمرون، ومن ذلك قول ﷻ على لسان الملائكة حملة العرش: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ غافر: ٧ جاء التنكير في قوله (رَّحْمَةً وَعِلْمًا) وهما دالتان على عِظم رحمة الله وعلمه وشمولهما، ولاريب فالعظيم ﷻ صفاته عظيمة، لكن التساؤل الذي استوقف الباحث: لم خُصّت الرحمة والعلم في هذا السياق؟

الرحمة والعلم جاءتا في سياق طلبي من الملائكة لربهم ﷻ، فإنهم يستغفرون للمؤمنين ثم يثنون على ربهم بسعة رحمته وعلمه ، وهذه الرحمة لا تكون عظيمة إلا إذا كانت صادرة عن علم شامل وواسع فهو ﷻ يعلم أحوالَ عباده وتقصيرَهم لكنه يرحمهم لعلمه بضعفهم ، وهنا يتأكد التعظيم الذي دلّ عليه التنكير أولاً ، فإن تنكير رحمة دلّ بمنطوقه على العظمة ؛ لأن النكرة تدل على التعظيم ، وعَطف العلم عليه أكد العظمة من جهة اللزوم .

وقد وقف الزمخشري مع هذه الآية وقفتين:

الوقفة الأولى: في سر نصب النكرتين على التمييز؟ يقول: "والأصل وسع كلَّ شيء رحمتُك وعلمُك، ولكن أزيل الكلام عن أصله بأن أسند الفعل إلى صاحب الرحمة والعلم، وأخرجا منصوبين على التمييز للإغراق في وصفه بالرحمة والعلم، كأن ذاته رحمة وعلم واسعان كل شيء"[(١)]، فالوجه الإعرابي للنكرتين متوائم مع المعنى والسياق.

الوقفة الثانية: وقف الزمخشري عند إعادة إحدى النكرتين (رحمة وعلما) دون الثانية، فقد أكّد الله الرحمة بدعاء المغفرة ﴿ فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ ﴾ غافر: ٧ أما العلم فلم يأت له تأكيد، يقول الزمخشري: "فإن قلت :قد ذكر الرحمة والعلم فوجب أن يكون ما

(١) الكشاف للزمخشري ٤/ ١٥٣

بعد الفاء مشـــتملا على حديثهما جميعا، وما ذكر إلا الغفران وحده؟ قلت: معناه فاغفر للذين علمتَ منهم التســـوية واتباع ســـبيلك"[١] ، إذا فالمغفرة مســـتلزمة للعلم، وهذا وجه اقترانها وانســـجامها، فإنه أعاد إحداهما لفظا والثانية معنى، وانطواء بعض الألفاظ تحت بعض يغني عن التكرار، وترى هنا في كلام الزمخشـــري ربطا للكلام اللاحق مع الســـابق على وجه لا يدرك إلا بالتأمل.

المبحث الثاني : التنكير في سياق الحديث عن يوم القيامة :

تســـتقبل الملائكة أهل الجنة والنار، أما أهل النار فتوبخهم وأما أهل الجنة فتكرمهم ، يقول تعالى على لســـان الملائكة مخاطبين أهل النار: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ ﴾ الزمر: ٧١ وفي هذا الســـياق التقريعي حضـــور للنكرة (رُسُلٌ) فما دلالتها ؟ وما وجه انسجامها مع الآية ؟

جاءت النكرة في جملة الســـؤال الإنكاري المنفي ويراد به التقرير ، أي: (قد جاءتكم رســـل) وهنا تأتي النكرة لتدل على الكثرة التي تؤكد معنى التقرير قبلها ، فليس لكم يا أهل النار عذر تســـتمســـكون به ، فقد جاءتكم رســـل متتابعة أبانت لكم طريق النجاة فأبيتكم إلا الهلاك .

وتدلّ النكرة كذلك على العظمة والمكانة لأولئك الرسل، وهذه المكانة قد استقرت في نفوس المكذبين واستيقنتها أنفسهم، لكنهم آثروا هواهم فأوردهم شر العاقبة ، وهذا المعنى يقطع الاعتذار الذي قد يرد على لسان المكذبين، فإنهم ربما يعترفون بالرسل لكنهم لا يثقون فيهم أو يجهلون مكانهم .. كل ذلك لم يكن ، إنما عظمتهم ظاهرة يشـــهد بها كل من رآهم، وعلم صـــدقهم ونصـــحهم لمن أرســـلوا إليه، فقومهم يعرفون ذلك كما يعرفون أنفســـهم، ولذلك أُعقبت النكرة بالجار والمجرور، (منكم) ليبين شـــهودهم على تلك العظمة، فهم منكم ، لا تنكرونهم ولا يستريب عليكم شأنهم .

ويحتفي الملائكة بأهل الجنة الذين يساقون إليها وفدا مكرمين قد فُتّحت لهم أبوابها وسمعوا من الملائكة: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ الزمر: ٧٣ وقد ابتدأ خطاب الملائكة

(١) السابق نفسه.

بالنكرة (سلام) التي لاءمت حال أهل الجنة فهم يدخلون دار السلام التي سلمت من كل شائبة ونقص، ومن أسماء الجنة دار السلام [١]، وكأن النكرة تمهيد للنداء الذي يسمعه أهل الجنة : إن لكم أن تَصِحُّوا فلا تسقموا أبدا، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا، وإن لكم أن تَشِبُّوا فلا تهرموا أبدا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا[٢]، وفي النكرة (سلام) مزيد حفاوة وترحيب؛ لأنها بشارة بنجاتهم من العذاب الذي يصلى أجساد المكذبين، وهي بدء لحياة جديدة لا تشابه الدنيا بحال، فالدنيا التي خرجوا منها عانوا منها وهم الآن على الآرائك متكئون.

ومن ظلال هذه النكرة جاء استشعار أهل الجنة لما هم فيه من نعمة ، فبعد بشارة الملائكة لهم قالوا: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ فاطر: ٣٤ - ٣٥، وهذه المعاني تفصيل لما أجملته النكرة (سلام) فقد سلّمهم الله من كل حزن وأورثهم دار المقامة لا يبغون عنها حولا، واستشعار المنة من أهل الجنة شمل نعيمين: أحدهما منفي والآخر مثبت، فالمنفي أن أذهب عنهم الحزن، والمثبت أن أدخلهم دار الخلد، وهذان تقرير لما ورد في النكرة (سلام)، فإنها وإن كانت ابتداء تعني السلامة من المكروه، وأنها أمنة من الله لأهل الجنة أن ينالهم بعدُ مكروه أو أذى كما قال الطبري[٣]، فإن هذه النعم لا تتم إلا بإثبات النعيم ولهذا جاء النفي والإثبات.

وقد وردت هذه النكرة (سلام) على لسان الملائكة في ثلاث مواضع من القرآن الكريم، كلها خطاب لأهل الجنة: الموضع الأول: في قوله تعالى واصفا نعيم أهل الجنة : ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ الرعد: ٢٣ – ٢٤ وهنا جُعل السلام نتيجة للصبر، فكما صبروا عن ماحُرم عليهم في الدنيا وسلموا أنفسهم من سخط الله وعقابه أورثهم الجنة دار السلام، ولتمكين السلام لأهل الجنة جيء بحرف الاستعلاء (على) الذي

---

(١) كما جاء في قوله تعالى: ﴿ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ الأنعام: ١٢٧

(٢) رواه مسلم برقم (٨١٦٤)

(٣) انظر: تفسير الطبري ٢١/ ٣٤١

يدل على الظهور والاستعلاء(١)، فصار السلام علامة لأهل الجنة وكرامة لهم.

والموضع الثاني في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ النحل: ٣٢ وهذه الآية كسابقتها قيدت النكرة بحرف الجر (على)، وفيه تمام النعمة وشهودها وظهورها، ولكنها لم تجعل السلام جائزة للصبر وحده كما في الآية السابقة، إنما جعلته نظير ما عملوا في الدنيا، كما أن هذا السلام كان قبل دخول الجنة، بخلاف ذلك في الآية السابقة؛ فإن السلام حال تبوئهم منازلهم في الجنة وسكنى القصور، ولذلك فإن الملائكة يلقون تحية السلام وهم يدخلون عليهم من كل باب، والوقوف على هذه الفروقات يمس البلاغة من طرف خفي، فالبلاغة قرينة المقام والحال، ولعل تقييد السلام بالصبر رد لعجز الكلام على صدره المتقدم، فإن الله ﷻ في هذه السورة ذكر من نعوت أهل الجنة في الدنيا الصبر ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ الرعد: ٢٢ وفي تحية الملائكة وتقييد السلام بالصبر تأكيد على ما اتصفوا به من قبل، فتنبه القارئ أن أهل الجنة إنما تبوأوا هذه المنزلة بصبرهم، أما في سورة النحل فإن النكرة (سلام) وردت في سياق العموم، فالآيات قبلها لم تخص عملا بعينه، إنما ذكرت الحُسْنَ صفة للعمل الصالح: ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ النحل: ٣٠

المبحث الثالث: التنكير في سياق التبشير والتحذير :

جاءت النكرة كثيرا على لسان الملائكة في سياق البشارة، وأكثر ما تأتي في شأن الأنبياء، فحين طلب زكريا الولد جاءته الملائكة تبشره: ﴿ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ آل عمران: ٣٩.

في هذه الآيات خمس نكرات (مصدقاً – كلمة – سيداً – حصوراً – نبيا) ويمكن أن نسمى هذا تكاثف النكرات) ولم يرد نظير هذا في القرآن على لسان الملائكة فيه مثل هذا التتابع ، ولا ريب أن لهذا التتابع حكما وأسراراً بعضها تتصل بالبلاغة والبيان .

وهذه النكرات كلها أوصاف ليحيى عليه السلام ، وقد جاءت مرتبة متناسقة بدأت بـ(مصدقا) ثم

(١) انظر: شرح تسهيل الفوائد لابن مالك ٣/ ١٦٢ و انظر: المفصل في صنعة الإعراب للزمخشري: ٣٨٤

تدرجت علوا حتى ختمت بالأهم (نبيا) ، أما النكرة الأولى: (مصـــدقا) فإنها جاءت مرتبطة بنكرة أخرى (كلمة) وهي على قول أكثر المفســرين (عيســى) عليه السلام[1] ، وهنا نجد عدولا من ذكر (عيســى) المعرفة إلى النكرة (كلمة) ولعل ذلك راجع إلى ســياق الآية ، فإنها جاءت في بيان عظمة نعمة الولد الذي رُزقه زكريا عليه الســلام ، فإن الله جل جلاله لفضــله وكرمه منحه ابنا صالحاً مصدقاً برسالة عيسى عليه السلام الذي تجلّت في ولادته عظمة الله، فإذا كان الله جل جلاله مُنح زكريا الولد على كبره -وهي نعمة عظيمة- فإن هناك ما هو أعلا منه نعمة وأظهر إعجازا وهو عيســى عليه السلام الذي خلقه الله جل جلاله بكلمة (كن فيكون) دون أب، فلا تعجب فقدرة الله نافذة ومشيئته لا منتهى لها .

وربما تكون النكرة الأولى: (مصـــدقا) ملمحة إلى النكرة الأخيرة: (نبيا) فكما أن يحيى جاء مصدقا بعيسى فقد منحه الله النبوة التي هي أعظم تشريف واصطفاء من الله للبشر .

وقد انتظمت هذه النكرات الخمس بنظام بديع بدأت بالإيمان والاتباع وختمت بالرســالة والنبوة وبينهما جاءت مقومات الرســالة وحمل أعباء النبوة، وتنكيرها دال على عظمتها في ذاتها وعظمة من اتصــف بها، فللصِّــديق مكانة شــرعية تأتي بعد النبوة، ومتصــفها من المتقين: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ الزمر: ٣٣ أما (ســيدا) فعظمتها ظاهرة، فمن علا غيره ساده، والسادة عليه القوم[2] ، والأنبياء سادة البشر ، ثم جاءت النكرة (حصوراً) التي تبين عظيم ديانة يحيى عليه السلام، فالحصور من فرّغ قلبه للعبادة ولم يلتفت إلى شــهوات نفســه وملذاتها[3] ، وليس هذا خلقة إنما هو فعل مكتســب، يقول أبو حيان: " وإيراد الحصور وصفا في معرض الثناء الجميل إنما يكون عن الفعل المكتسب دون الجبلة في الغالب "[4] .

وإذا كانت الملائكة قد بشرت زكريا بيحيى فإنها كذلك قد خاطبت مريم مبشرة بولادة عيسى

(١) انظر: تفسير الطبري ٥/ ٣٧٠

(٢) انظر: تهذيب اللغة ١٣/ ٢٧ و انظر: لسان العرب لابن منظور٣/ ٢٣٠

(٣) انظر: تهذيب اللغة ٤/ ١٣٨ ، و انظر: لسان العرب ٤/ ١٩٤

(٤) البحر المحيط، ٣/ ١٣٣

عليه السلام قال تعالى :﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ آل عمران: ٤٥ - ٤٦

وفي هذه الآية (تكاثف للنكرات) كما جاء في الآية السابقة، إذ جاءت ثلاث نكرات : (كلمة – وجيها – كهلا) أما الأولى (كلمة) فقد جاء ذكرها في الآية السابقة التي تبشر زكريا بولادة يحيى عليهما السلام ، فقد ذكرت الآية أنه مصدق (بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ) وهذه الكلمة على قول كثير من المفسرين عيسى[1]، وهذه الآية شاهده بذلك ، إذ جاءت (كلمة) وصفا لعيسى عليه السلام ، كما جاءت في غيرها من الآيات، والتنكير يفيد التعظيم ويبين مكانة عيسى ويمهد لذكر نبوّته بعد ذلك، وهذه العظمة تشير إلى المعجزة الربانية في عيسى حيث أُنجب من أم بلا أب، وتكلم في المهد، ورفعه الله إليه حين أراد قومه قتله، وجعل مكانه شبيها له، كل هذه عظمة اختص بها عيسى عليه السلام دون غيره من الأنبياء، وعلى ذلك يفهم معنى التعظيم من النكرة (كلمة) .

ثم جاءت النكرة الأخرى (وَجِيهًا) تكريما وتشريفا لعيسى عليه السلام ودلّت على عموم الوجاهة بطريقين : الأولى التنكير ، فإنه دال على التعظيم كما في النكرة السابقة (كلمة).

والثاني: ما تبع النكرة من عموم في قوله: (فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ) أما في الدنيا فاصطفاه الله بالرسالة وكرّمه بأن كان من أولي العزم من الرسل، وحفظه ورفعه إليه ، وأما في الآخرة فأعظم من ذلك ، فإنه من أفضل الأنبياء، ومن أولي العزم من الرسل، الذين لهم عند الله نعيم وكرامة، وما عند الله خير وأبقى، يقول أبو حيان : " والمعنى في الوجيه أنه حيثما أقبل بوجهه عُظِّم وروعي أمره .. وجاه عيسى عليه السلام في الدنيا نبوته وذكره ورفعه في الآخرة مكانته ونعيمه وشفاعته "[2] .

وحملت النكرة (وَجِيهًا) معنى التشريف والمكانة في صورة المجاز المرسل ، إذ عُبر بالجزء عن

(١) انظر: تفسير الطبري ٥/ ٣٧٠

(٢) البحر المحيط ١/ ٤٣٦

الكل فـــ (وجيها) من الوجاهة المأخوذة من الوجه[١] ، وإنما خصّت العرب الوجه دون غيره لأنه الأعلى والأبرز، وفيه الجوارح من سـمع وبصـر وغيرهما ، يقول الطبري : " وجيها ذا وجه ومنزلة عالية عند الله وشـــرف وكرامة ، ومنه يقال للرجل الذي يشـــرف وتعظمه الملوك والناس : وجيه ، يقال منه : ما كان فلان وجيهاً ولقد وَجُهَ وجاهة ، وإن له لوجها عند السلطان وجاهاً ووجاهة "[٢].

وهذا يتّســق مع التذييل الذي تبع النكرة (فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ) فله في قومه مكانة وحظوة وله عند الله ما هو أ سمى وأرفع ، وقد جاء في الآية ما يؤكد ذلك: (وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ) والقرب من لوازم الوجاهة ، فصاحب المكانة مقرب من الناس ومُصدَّر في مجالسهم .

ونظرًا لمكانة النكرة (وَجِيهًا) فإنها لم تأت في القرآن وصفا إلا لنبيين كريمين ، هما موسى وعيسى عليهما السلام ، أما عيسى فقد تقدمت الإشارة إليه ، وأما موسى ففي قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴾ الأحزاب: ٦٩ ولهذه الآية سبب نزول ذكره المفسرون من حديث رسول الله ﷺ مفاده أن بني إسرائيل آذوا موسى عليه السلام واتهموه بالنقص وزعموا أنه آدر[٣] فردّ الله عن نبيه وبين له كماله خلقته[٤]، وإذا توقفنا مع النكرة (وجيها) في شأن النبيين موسى وعيسى وجدنا أنها جاءت في شأن عيسى عليه السلام على لسان الملائكة بشارة لمريم بمولده، أما في شأن موسى عليه السلام فجاءت دفعاً لأذى قومه، ولذا خُصّت الوجاهة بأنها من عند الله، بخلاف الوجاهة في عيسى فإنها اتبعت بقوله: (فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ) وتقييد الوجاهة بأنها من الله أعظم وأكمل، وربما يشفع لذلك رأي بعض أهل العلم أن موسى أفضل من عيسى في مراتب تفاضل الرسل[٥]، الذي دلّ عليه قوله تعالى: ﴿ تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ ﴾البقرة: ٢٥٣.

---

(١) انظر: تهذيب اللغة ٥/ ١٨٦ ، و انظر: الصحاح ٦/ ٢٥٥ ، و انظر: لسان العرب ١٣/ ٥٥٨

(٢) تفسير الطبري: ٥/ ٤١٠

(٣) آدر: أي كبير الخصية، انظر: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للفيومي ١/ ٩

(٤) رواه ابن حبان برقم (٦٢١١)

(٥) انظر: تفسير ابن كثير ٥/ ٨١

ويظهر لي أن في كلمة (وَجِيهًا) عدولا في نوع الكلمة تبعه عدول إعرابي، فإن ظاهر السياق أن النكرة جاءت وصفا لعيسى، والصفة تتبع الموصوف ، وعليه فالأصل أن تكون معرفة لا نكرة ، ولكن عُدل إلى التنكير وجعلت (حالا) لا وصفا، ويبدو أن العدول لما تحمله النكرة من معاني العظمة والتشريف الذي يلتئم مع السياق، فإنه جاء تعظيما لأمر عيسى وذكرا لآية الله فيه، وهذا العدول يؤكد مرونة اللغة في الانتقال بين الأوجه الإعرابية المختلفة لخدمة المعنى العام.

واختلف في الحال (وجيها)، قيل: حال من (كلمة) ، ويشكل عليه اختلاف الكلمتين تذكيرا وتأنيثاً ، فـ (كلمة) مؤنثة، و (وجيها) مذكرة ، ولذلك رأى آخرون أن (وجيها) حال لمحذوف تقديره: (مكون بكلمة) أو (مخلوق بكلمة) وهنا تلاحظ أن المحذوف المقدر (مكون-مخلوق) مذكر لا مؤنث[١] ، وتجد أن الإعراب أشار إلى العنصر المحذوف، وساهم في تحديده بناء على قواعد اللغة وما يلائم السياق، وإذا اختلف التوجيه اختلف المعنى، وهذا مما ينبغي العناية به عند التحليل البلاغي.

أما النكرة الثالثة (كهلا) فجاءت في سياق معجزات عيسى عليه السلام :(وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا) قال الطبري : "معناه أن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيهًا عند الله ومكلمًا الناس في المهد"[٢] وفي الكهولة، أما في المهد فبراءة لأمة وآية على رسالته، وأما في الكهولة -وإن كان معتادا- فإنه رد على النصارى الذين زعموا أن عيسى عليه السلام يتغير في الأحداث ومع تقلب الأزمان، فلا يستطيع في كهولته ما كان يستطيعه في مهده، أي أنه يستطيع الكلام لمن كان في المهد، وتبقى معه حتى في كهولته[٣]، وقد جرت العادة أن الكهل تضعف قواه ومنها الكلام فربما تكلم بكلام لم يفهم، فنفت الآية ذلك وهذه معجزة ظاهرة. والنكرة (كهلا) تشير – كما يظهر للباحث – إلى حذف خفي يدرك بعد التأمل في معنى

(١) انظر: التبيان في إعراب القرآن للعكبري ١/ ٢٦٠ و إنما جاز أن يكون صاحب الحال نكرة لأنه موصوف، انظر: إعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين درويش ١/ ٥١٠

(٢) تفسير الطبري ٦/ ٤١٦

(٣) انظر تفسير الطبري ٦/ ٤١٨

الآية، إذ خصت مرحلة الكهولة بالذكر وسكتت عما قبلها ، وهذا سكوت ناطق، فالكلام أنطق ما يكون إذا لم ينطق، وأتم ما يكون بيانا إذا لم يبن [١] ، وكأن الآية والله أعلم – بتقدير المسكوت عنه : ويكلم الناس في المهد شاباً وكهلا ، وهذا أمر يدعو للعجب إذ نابت نكرة عن نكرة لدلالة سياق الكلام على المحذوف ، ويظهر أن إثبات (كهلا) وحذف (شابا) يستقيم مع سياق المعجزة؛ إذ الكلام وقت الكهولة مع الضعف مستلزم للكلام حال الشباب مع القوة، وربما تكون لفظة (المهد) معبرة بمفهومها العام عن أول العمر لكلا الطرفين : (عيسى عليه السلام حال شبابه والطفل الذي يكلمه عيسى في المهد) .

ويلحظ المتأمل في موقع (كهلا) جمال التجاور والتقابل بين المعرفة والنكرة، فـــ(المهد) معرفة و(كهلا) نكرة ، وليس بينهما سوى حرف العطف، ولا ترى بينهما تنافرا وقد جمعتا اختلاف النوع والمعنى، فالنوع تقدم آنفا وهو التعريف والتنكير، أما المعنى فالمهد أول العمر والكهولة آخره، وهذا يبين سمو البلاغة القرآنية وتميزها عن غيرها ، كما يدل على دقة اختيار الموقع والهيئة الأنسب لكل كلمة ، وقد أشار إلى ذلك الخطابي في نظريته: (**عمود البلاغة**) حيث رأى أن البلاغة قائمة على اختيار اللفظ المناسب في موضعه المناسب الذي يتوافق مع دلالة الكلام ومراد المتكلم [٢].

ولما سمعت مريم البشارة بعيسى عليه السلام مُلِئت عجبا، وأجابت بجملتين، كل جملة ختمت بنكرة: ﴿ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾آل عمران: ٤٧ فـ (وَلَدٌ) و(بَشَرٌ) ختم لكل جملة، فأجابتها الملائكة بجملتين :﴿ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ آل عمران: ٤٧ (أمر) يدل على العموم والعظمة لما يشاء الله، وفي هذا تلاؤم لحال مريم التي استبعدت أن ترزق الولد من غير زوج، فجاء الجواب بما هو أعجب، فالله بقدرته أمرُه بالقول وعيسى عليه السلام من جملة أمره.

وجاءت النكرة في تركيب شرطي يفيد الجزم الذي لا ريب فيه ، وجاور النكرة الفعل (قَضَىٰٓ) الذي له سياقات عالية في الكتاب العزيز، ففي التوحيد : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾

(١) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني: ص ١٤٦

(٢) انظر: بيان إعجاز القرآن للخطابي : ٢٩

الإسراء: ٢٣وفي الفرائض الكبرى كالصلاة والحج: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ النساء: ١٠٣وقوله: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ ﴾ البقرة: ٢٠٠وفي فصل القضاء يوم القيامة ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ الزمر: ٧٥ وهذا الفعل يدلّ على نهاية الأمر والفراغ منه، فلا محيد عن وقوعه، والقضاء فيه معنى الإحكام والصلابة والقوة[١].

ولما اطمأنت مريم بأن عيسى قضاء قدّره الله لا محيد عنه عادت الملائكة لتبشرها وتسكن روعها وتقرَّ عينها ، قال تعالى: ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ آل عمران: ٤٩ فـ(**رسول**) نكرة وهي آخر النكرات التي جاءت على لسان الملائكة في هذا السياق، وهذه النكرة هي أعلى أوصاف عيسى عليه السلام؛ لأنها وصفته بالرسالة التي هي من أرفع المقامات البشرية ، ولعل تأخيرها إلى هذا الموضع راجع لدهشة مريم التي لما سمعت بالولد تعجبت وأظهرت تحسرها في غير هذا السياق خشية أن تتهم : ﴿ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ مريم: ٢٣ فلما حدث هذا من مريم جاءت النكرة (رسولا) التي هي أعظم البشارات فاطمأنت ورضيت .

وهذا يدل على أن النكرات في هذا السياق جاءت متسقة حتى تصل إلى الذروة ، وهذا ملائم لحال الملائكة مع مريم ، فإن البشارة الكبرى (رسولا) لو صُدرت لأخفت بريق ما بعدها؛ ولم يعد لها أثر ، ومن هنا ينبغي دراسة الظواهر الأسلوبية بجوار المعاني ليقف الدارس على نمو المعاني وتحركها علوا أو نزولا .

ونظراً لأهمية هذه النكرة (**رسولا**) جاءت في صدر الآية؛ لإبرازها ووضعها في المكان اللائق ، فليست براعة الاستهلال في الشعر وحده ، إنما شِركة بين فني الكلام شعره ونثره، ويترتب على ما تقدم أن (رسولا) حازت النسق الجمالي مرتين :

أولا: في تأخيرها وإيرادها بعد عُجب مريم.

ثانيا: في جعلها رأسا للآية التي تتحدث عن البشارات .

وهذه النكرة (**رسولا**) سُبقت بما يمهد لها، فإن الرسالة مقام عظيم لا ينالها الإنسان إلا بعد أن يهيئه الله ويصنع على عينه، وفي الآية التي سبقت النكرة جاء بيان الإعداد ، قال تعالى:

(١) انظر الصحاح للجوهري ٦/ ٢٤٦٤

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ آل عمران: ٤٨فالتعليم سابق لوصف الرسالة، وهذا يبين أن النكرة مستقرة في مكانها، جاءت ضمن سياق مترابط آخذ بعضهه بحجز بعض كما يقول البقاعي(١) .

وهذه النكرة (**رسولا**) لا يصح معنى أن تعطف على ما سبقها، إذ لو عطفت لكانت الرسالة مما يتعلم كما يتعلم التوراة والإنجيل، وهذا غير ممكن، ولذا اختلف العلماء في تحديد الموقع الإعرابي لهذه النكرة، ولعل أعدل الأوجه التي تتفق مع السياق أن تكون مفعولا لفعل محذوف تقديره (جعله) أي: جعله رسولا إلى بني إسرائيل(٢)، وهذا يؤكد ما سبقت الإشارة إليه من أن الإعراب فرع المعنى(٣).

ومن البشائر التي جاءت على لسان الملائكة قوله تعالى : ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ فصلت:٣٢ وسَبق التبشيرَ نفيُ الخوف والحزن ودخول الجنة، ثم خَص من نعيم الجنة (**النُّزل**) وأصل النزل: ما يقدم للضيف عند نزوله على المضيف من مأكل طيب ، ومشرب حسن ، ومكان فيه راحته(٤)، فذَكَر الخاصَ بعد العام، وهذا يؤكد تمكُّن النكرة من موقعها وانسجامها مع السياق، يقول الخطيب القزويني: "وأما ذكر الخاص بعد العام للتنبيه على فضله حتى كأنه ليس من جنسه، تنزيلا للتغاير في الوصف منزلة التغاير في الذات"(٥) ، وفي النكرة عَود لآخر الكلام على أوله، فقد نفى الخوف والحزن قبلُ، وبشرهم بالجنة، ثم أكّد النعيمَ الخاص لهم (نُزُل) حتى لا يخافوا على مستقبلهم ولا يحزنوا على ما فاتهم، فإن الله سيعوضهم بالنزل الكريم الذي لا نظير له.

وقد أُتبعت النكرة (نُزُل) باسمين من أسماء الله دالين على عظيم العفو والصفح ، فليس النزل خاص بأهل المقامات العالية بل إن الله من رحمته يمنحه عباده وإن قصروا، فهو

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ٦/ ٣٧١

(٢) انظر: تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) ١/ ٢٥٦

(٣) انظر: سر صناعة الإعراب لابن جني : ٢/ ٣٤٤

(٤) انظر الصحاح : ٥/ ١٨٢٨ ، و انظر: شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، لنشوان الحميري ١٠/ ٦٥٥٥

(٥) الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني ٣/ ٢٠٠

غفور يستر عليهم، ورحيم يمحو ذنوبهم، ثم يورثهم النزل الذي ما نالوه إلا برحمة الله .

ولا ريب أن نعيم الجنة عظيم لا يخطر ببال بشر ولذا جاءت النكرة (**نزل**) للتعظيم، ومن عظمته أُبهم ولم يُصرح به ، يقول الطبري: " أعطاكم ذلك ربكم نزلا"[١] وقال القرطبي: "رزقا وضيافة"[٢] فالمفسرون لم يصرحوا بماهية النزل لكنهم أجمعوا أنه تكريم بعد تكريم، فبعد ستر العيوب ومغفرة الذنوب بوأهم هذا النزل الذي بلغوه برحمة الله وفضله لا بأعمالهم .

ومما يوجب التوقف عنده موقع النكرة، التي جاءت في صدر الآية ، فإنها ما تقدمت إلا لأهميتها، وهذه طريقة العرب في كلامها، فإنهم يقدمون ما هم به أغنى[٣] ، وهذا التقديم ليس تقديما إعرابيًا فحسب إنما تقديم موضعي له انعكاس على المعنى .

ومن تأمل كلمة (**نُزُلا**) في القرآن وجد أنها جاءت في كل المواضع تكريما لأهل الجنة، وهذا يدلّ على تمكنها في معنى الإكرام، والأغلب في هذه الآيات أن موقعها الإعرابي (مفعول لأجله) ويرى بعض النحويين أن المفعول لأجله فضلة ليس من أركان الجملة يسوغ حذفه[٤] ، وهذا لا يدل على عدم أهميته، فإن النحاة إنما قصدوا أن قيام المعنى العام لأي جملة لا يستلزم مفعولا لأجله، أما من حيث الدلالة الخاصة فإن للمفعول لأجله مكانة ومنزلة .

فالمفعول لأجله يكشف دلالة خفية لولاه لم يعرفها المتلقي ، وهذه الدلالة هي سبب حدوث الفعل قبله، فهو إذا يعود بالكلام اللاحق على السابق، ويربط النتيجة بالسبب، ولذلك لا بد من مشاركة هذا المفعول لفعله في الزمان والفاعل[٥] ، وحين يستقر هذا المفهوم نعود إلى النكرة (نزلا) متأملين في سياقها لنجد أنها تؤكد غاية الإكرام لأهل الجنة، فإن الملائكة وهم أعرف الخلق بربهم يبشرون أهل الجنة برضا ربهم واحتفائه بهم، وأنه ما أعد هذا النعيم الأبدي إلا لإسعادتهم وإكرامهم، فكما أكرموا أنفسهم في الدنيا بالطاعات نالوا

(١) تفسير الطبري ٢١/ ٤٦٨

(٢) تفسير القرطبي، أو الجامع لأحكام القرآن ١٥/ ٣٩٥

(٣) انظر: الكتاب لسيبويه ١/ ٣٤

(٤) انظر: شرح كتاب الحدود في النحو للفاكهي : ٢١٦

(٥) انظر: شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب لابن هشام: ٢٩٥

النزل والمقام في الجنات .

ويظهر مما تقدم أن أكثر ما ترد النكرة على لسان الملائكة في موضع البشارة والتكريم، سواء أكانت البشارة في الدنيا كما حدث مع مريم حين بشروها بعيسى عليه السلام أم في الآخرة كما بشرت الملائكة المؤمنين وهم يدخلون الجنة .

وفيما مضى جاءت النكرة في سياق التبشير أما في قوله تعالى على لسان الملائكة : ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾البقرة: ١٠٢ فإن هذه الآية جاءت في سياق التحذير من السحر وأنه فتنة يبتلى به الإنسان ويقوده للكفر، ونقل ابن كثير عن الحسن البصري أنه قال في تفسير هذه الآية: " أُنزل الملكان بالسحر ليعلما الناس البلاء الذي أراد الله أن يبتلي به الناس ، فأخذ عليهما الميثاق ألا يعلما أحدًا حتى يقولا : ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ رواه ابن أبي حاتم ، وقال قتادة: "كان أخذ عليهما ألا يعلما أحداً حتى يقولا : ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ أي: بلاء أُبتلينا به فلا تكفر"[1] وهذا صريح أن ذلك من قول الملكين عليهما السلام .

والتنكير هنا (فِتْنَةٌ) للتعظيم الملائم للسياق الذي جاء محذراً من السحر ، وقد جاء معنى التحذير من التعظيم الذي يقف خلف التنكير، فلعظمه وخطره حضر التنكير على لسان الملائكة الكرام .

وقد احتفّت النكرة بأدوات أكّدت معنى التعظيم وزادت من نبرة التحذير، فقد سُبقت بـ (إنما) الدالة على الحصر والتقييد ثم جاء الفصل (نحن) وهو تأكيد للتأكيد الذي سبق ، ثم اتبعت النكرة بالطلب الذي جاء في صورة النهي ، وهو متسق مع التحذير الذي سبق ، وقد ضُمن النهي علة التحذير وهو الكفر ، فلو قيل : فلا تذهب للسحرة ، أو فلا تقع في السحر لم يكن أبلغ من التصريح بعلة النهي .

وتلمس في هذه النكرة (فِتْنَةٌ) دِقّة الاختيار من بين مرادفاتها ؛ لأن الفتنة فيها معنى المصيبة الكبيرة والبلية العظيمة التي يُحذر منها[2] ، كما أنها تشير من طرف جلي إلى العذاب، فالفتنة مأخوذة من الفَتْن الذي له اتصال بالنار ، قال الأزهري : "جماع معنى الفتنة في

(١) تفسير ابن كثير، ١/ ٢٤٨

(٢) انظر: تاج العروس للزبيدي ٣٥/ ٤٩٦

كلام العرب الابتلاء والامتحان ، وأصـــلها مأخوذ من قولك فتنت الذهب والفضـــة أذبتهما بالنار ليتميز الرديء من الجيد ، ومن هذا قول الله تعالى ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴾ الذاريات: ١٣ أي يحرقون بالنار"[١] .

قـال ابن الأثير مبينـا التطور الـدلالي لهـذه الكلمـة : الفتنـة : "الامتحـان والاختبـار .. وقد كثر اســـتعمالها فيما أخرجه الاختبار من المكروه ، ثم كثر حتى اســـتعمل بمعنى الإثم والكفر والقتال والإحراق والإزالة والصرف عن الشيء"[٢] .

(١) تهذيب اللغة ١٤/ ٢١١

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر٣/٤١٠-٤١١

الفصل الثاني

الظواهر الأسلوبية في خطاب التنكير عند الملائكة

للتنكير عدة دلالات تشترك في حملها النصوص اللغوية كالتعظيم والتحقير وغيرها، وهذه دلالات عامة ينبغي ربطها مع سياقها وبيان التلاحم بينها وبينه، وعند دراسة ظاهرة التنكير في النصوص يجد الباحث أن ثمة سمات وخصائص أسلوبية احتفت به، وزادت من فنيته وتصويره، وهذه الخصائص تظهر بعد طول تأمل وإمعان نظر، وينبغي التنويه بها ودراسة أثرها على التنكير خصوصا وعلى النص عموما.

وفي هذا الفصل أسلط الضوء على خصوصيات الخطاب التنكيري عند الملائكة عليهم السلام ، نتيجة لما سبق استعراضه والإشارة إليه عند تحليل الآيات الكريمة .

المبحث الأول : تكاثف النكرات:

في السياق القرآني على وجه العموم نجد حضور النكرات بشكل انفرادي دون تتابع ، وإن وجد فيكون التتابع لنكرتين وحسب ، أما الخطاب الملائكي فنجد العدد يزيد عن ذلك ، وهي ظاهرة أحسب – والله أعلم – أنها مما امتاز به الخطاب الملائكي في القرآن الكريم.

وإذا كانت النكرة تدلّ على مفهوم شائع دون تحديد[1] فإنها إذا تكاثفت وتتابعت زال عنها هذا الشمول وخلعت لباس العموم وصارت بتكاثفها في عِداد المعارف، وقد أشار إلى ذلك الألوسي المفسر عند قوله تعالى : ﴿ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ﴾ الطور: ٢ يقول : "ففي التنكير كمال التعريف والتنبيه على أن ذلك الكتاب لا يخفى نُكّر أو عُرّف"[2] .

والنكرة إذا وصفت اقتربت من المعرفة ، ولا يقيد إفادة النكرات المتتابعة للتعريف بكون الثانية وصفا للأولى ؛ لأن ظاهرة تكاثف النكرات في خطاب الملائكة جاءت بصورة منصبة على معنى واحد فكانت بمثابة الصفة والموصوف، ثم إنها ليست تركيبة ثنائية ليطلب منها الاتصال، إنما هي تركيبة ثلاثية وأكثر .

ففي قوله تعالى على لسان الملائكة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي

(١) سبق الحديث عن ذلك في بلاغة التنكير في المبحث الأول في التمهيد.

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي ١٤/ ٢٨

ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ آل عمران: ٤٥ - ٤٦

جاءت النكرات : (كلمة ، وجيهاً ، كهلا) كلها منصبة على عيسى عليه السلام فاتحادها مع تكاثفها جعل النكرات في عداد المعارف.

ويلحظ في تكاثف النكرات أن المعرفة تنسل أحيانًا من بين النكرات، فتبعث على الإدهاش والتساؤل، وحين تنظر في الآية السابقة وتمعن الطرف فيها تجد أن المعرفة (المهد) جاورت النكرة (كهلا) !! وهذا داع للتأمل لمعرفة علة ذلك ، ولعل ذلك راجع إلى التقييد والإطلاق ، ففترة المهد منحصرة، ربما لا تتجاوز السنة، أما الكهولة فأوسع من ذلك، ربما تمتد لسنوات حتى تتجاوز العقد والعقدين، فابتدأ بالأقل وعرّف ثم عطف عليه الأكثر ونكّر، وقد أحدث هذا التجاور جمالاً تقابليا اجتمع فيه الضدان دون حواجز بينهما ودون أن يحدث ذلك صدعا في تماسك الدلالة وجمال الآية[1] .

المبحث الثاني : تصاعد النكرات :

سبق الحديث عن ظاهرة التكاثف التنكيري التي هي توالي النكرات بعضها إثر بعض مع انصباب الحديث على مقصود واحد، وهذا التكاثف التنكيري يمتاز بالتصاعد علوا في بعض أحيانه، فدوائر المعنى تتسع مع النكرة الأخرى، ففي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ﴾ فعقد النكرات ابتدأ من (كلمة) التي دلّت على المعجزة في ولادته فحسب، ثم توسعت دوائر المعنى وشملت زمنا أوسع فجاءت (وجيها) لتكون وصفا لعيسى في الدنيا والآخرة، ثم أُكدت بشيء هو من لوازم وجاهته وهو تأييده بالمعجزات، ثم وصلت الدائرة إلى أقصاها فجاءت النكرة (رسولا) وهذا أعظم التشريف .

وفي هذا تأكيد لجمال القرآن الكريم ودِقّة مبانيه ، وأن كل كلمة قد استقرت في مكانها دون قلق أو اضطراب، كما تبين هذه الظاهرة أن من بلاغة القرآن ما لا يظهر إلا بالغوص في الدلالات والنظر في محيط المعنى ، للنظر والمقارنة بين ما ظاهره التماثل، فإن هذا التماثل ليس إلا في الإطار العام، أما في خصائص المعنى فتستبين الفروقات وتظهر الدلالات.

---

(١) وقد سبق الحديث عن ذلك في آية: ﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا ﴾ آل عمران: ٤٦

المبحث الثالث: التلاحم التنكيري :

يهتم علماء اللســانيات في تحليل الخطاب بالكشــف عن تماســك النص باعتباره وحدة دلالية[١]، ويشير التماسك النصي بمفهومه الواسع إلى جميع الوسائل الشكلية والدلالية التي من شأنها أن تسهم في إحداث التماسك والترابط بين العناصر المكونة للنص[٢].

وهذا يدل على تراحب أدوات الترابط النصــي، فكل وســيلة يمكن أن تســهم في الربط والتلاحم هي داخلة فيه، وبعض الأدوات لا تظهر بادئ الأمر، ولا تدرك بالنظرة العجلى، وحين يُقلب النص على عِدّة وجوه ، وينظر في سياقه العام والخاص وعلاقة مكوناته تظهر هذه الأدوات.

والقرآن الكريم أوضح نص تتجلى فيه مظاهر التماسك النصي، فهو النص الإلهي المعجز في لفظه ونظمه ومعناه والمعجز في تماســكه وانســجامه ، ولا شــك أن الباحث في النص القرآني يتعامل معه على أنه وحدة واحدة مترابطة[٣] .

وهنا نصل إلى التساؤل المرتبط برأس المبحث: ما دور التنكير الوارد في خطاب الملائكة عليهم السلام في تماسك النص وتلاحمه؟

أسهم التنكير بصورة فاعلة في ربط خيوط المعاني وعود لاحقها على سابقها من خلال إعادة المعاني بعينها، أو الدخول في شمولها، أو التنبيه على بعض أفرادها، ففي قوله تعالى على لسان الملائكة : ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ غافر: ٧ نجد أن الرحمة والعلم جاءتا في صيغة دعاء ، وهذا الوعاء الذي احتوى هاتين النكرتين يعود بظلاله إلى آخر السورة حين امتن الله على عباده بالأنعام التي منها يأكلون وعليها يحملون، وهذه النعم ناطقة بعلم الله ورحمته، إذ علم حاجة العباد فرحمهم وسخر لهم ما يحتاجون إليه، قال تعالى:﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً

(١) انظر مدخل إلى علم اللغة النصي تأليف فولفجانج هنية من وديترفيهفجر، ترجمة د.فالح العجمي :٢١، وانظر التماسك النصي في سورة النساء ، وفاء محمد الغرباني: ٥

(٢) انظر: اتساق النص في سورة الكهف، للمؤلف فريد عوض حيدر: ٢٣

(٣) انظر: إسهام البلاغة العربية في التماسك النصي من خلال تفسير الزمخشري، لخالد جلال البسيوني: ٢

فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ غافر: ٧٩ - ٨٠ ، وعليه فسياق الحديث عن الأنعام الوارد في آخر السورة يسمعك صدى النكرتين في أولها (رَّحْمَةً وَعِلْمًا) صدى يمسك معاني السورة ويأخذ بحجزها، فيعود آخرها على أولها.

وقد جاء التلاحم التنكيري على صورتين : داخلية وخارجية ، أما الصورة الأولى فتكون النكرة فيها متلاحمة مع النكرات التي حولها وكذلك السياق القريب، ففي قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ الرحمة والعلم متلازمان، إذ ربنا يعلم أحوال عباده وضعفهم فيرحمهم ويفتح لهم باب الإنابة، وهاتان النكرتان تتميزان بالشمول والإحاطة فقد أُتبعت بـ (رَبَّنَا وَسِعْتَ) ولذا يتناول المفسرون النكرتين مقرونة بصفة (الاتساع) يقول الإمام الطبري رحمه الله:" وسعت رحمتك وعلمك كل شيء من خلقك، فعلمت كل شيء فلم يخف عليك شيء ، ورحمت خلقك ووسعتهم برحمتك"(١).

ونجد أن النكرات تتلاحم مع مثيلاتها في سور أخرى، على وجه تكون الدائرة أوسعَ والمعاني أعمق، وهذا التلحم الخارجي، ففي الآية السابقة: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ نجد اقتران الرحمة بالعلم جاء في سور أخرى، صُرح بإحداهما وعُرِّض بالأخرى، قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ ﴾ النساء: ١٧٥ فلولا علمه بإيمانهم واعتصامهم به لما أدخلهم في رحمته، فعلمه بحالهم أوجب لهم إكرامهم .

ومن عظيم الرحمات إنزال الكتاب العزيز الذي يشهد بعلم الله ، ولذا يقول عنه :﴿ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ﴾النساء: ١٦٦ وقد وصف التوراة بأنها هدى ورحمة : ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ الأنعام: ١٥٤ فقد أبان لهم ﷻ بعلمه ما ينفعهم وحذرهم مما يضرهم، رحمة بهم وهداية إلى الصراط المستقيم .

وتبين من هذه الآيات ارتباط الرحمة بالعلم، فإن إحداهما داخلة في الأخرى بطريق اللزوم، وقد أكّد الزمخشري ذلك في وقوفه على قوله ﷻ : ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ ﴾ غافر:٧ حيث ذكرت الآية الرحمة والعلم أولا، ثم في دعاء

(١) تفسير الطبري ٢١/ ٣٥٥

الملائكة أعادت الرحمة بذكر أثرها وهي المغفرة (فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ) ولم تذكر العلم، قال الزمخشري: "فإن قلت: قد ذكر الرحمة والعلم فوجب أن يكون ما بعد الفاء مشتملا على حديثهما جميعا، وما ذكر إلا الغفران وحده؟ قلتُ: معناه فاغفر للذين علمت منهم التوبة واتباع سبيلك"(١).

وحين نستمع إلى تقريع الملائكة للعصاة على أبواب جهنم: ﴿ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ ﴾ الزمر:١٧ تجد أن النكرة (رُسُلٌ) قد عادت بنا إلى مشهد التكذيب، فحين جاءتهم رسلهم الذين يعرفون صدقهم لم يؤمنوا، واليوم يصلون العذاب جزاء تكذيبهم ، فالنتيجة عادت إلى السبب ، والعاقد بينها (رُسُلٌ) فهم كذبوهم أولاً، وعلى أبواب جهنم ذكروا بهم تقريعًا وتوبيخًا لتتم حسرتهم ويعظمَ ألمهم .

وهذا التلاحم كما أسلفت لا يتضح إلا بشيء من التأمل وتقليب وجوه المعاني، والنظر في تداخلاتها، في السورة ذاتها أو في السور الأخرى التي وردت فيها النكرة.

(١) الكشاف ٤/ ١٥٣

الخاتمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد..

فقد تبين لي من خلال البحث عدة أمور:

أولها: تميز بلاغة الملائكة الكرام عليهم السلام لعدة أسباب جرى الحديث عنها.

ثانيا: أن بلاغة التنكير لا تظهر بالأحكام الجزئية دون النظر إلى السياق العام وملاءمة النكرة له.

ثالثا: أن دراسة الظاهرة البلاغية والتعمق فيها يمكن للباحث أن يقف على ظواهر أسلوبية يمكن الإفادة منها الخطابات وبناء النصوص.

رابعا: أن أكثر ما يرد التنكير عند الملائكة الكرام إنما كان في سياق المبشرات.

ومن أبرز التوصيات ضرورة إقامة الدراسات الموسعة على الأساليب البلاغية لاستنباط الظواهر الأسلوبية التي تميز هذا اللون البلاغي عن غيره، ولإفادة هذه الظواهر في بناء النصوص المؤثرة، كما يوصي الباحث بدراسة مقارنة بين خطاب الملائكة في القرآن والسنة واستنباط أوجه التقارب والاختلاف.

قائمة المصادر والمراجع:

١- اتساق النص في سورة الكهف، لفريد عوض حيدر، من إصدار مكتبة زهراء الشرق، القاهرة ٢٠٠٤م

٢- أساليب بلاغية د. أحمد مطلوب، الناشر وكالة المطبوعات بالكويت، الطبعة الأولى ١٩٨٠م.

٣- إسهام البلاغة العربية في التماسك النصي من خلال تفسير الزمخشري، لخالد جلال البسيوني (رسالة ماجستير) جامعة المنوفية: ٢٠١٤م.

٤- إعراب القرآن وبيانه المؤلف : محيي الدين درويش الناشر : دار الإرشاد للشئون الجامعية - حمص - سورية ، (دار اليمامة - دمشق - بيروت) ، (دار ابن كثير - دمشق - بيروت) الطبعة : الرابعة ، ١٤١٥ هـ

٥- الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني، المحقق: محمد عبد المنعم خفاجي الناشر: دار الجيل - بيروت الطبعة: الثالثة

٦- البحر المحيط، لأبي حيان، المحقق: صدقي محمد جميل الناشر: دار الفكر - بيروت الطبعة: ١٤٢٠هـ

٧- البلاغة العربية (علم المعاني)، أ.د وليد قصاب دار القلم – دبي، الطبعة الأولى ١٩٨٠م.

٨- بيان إعجاز القرآن مطبوع ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، للخطابي حمد بن محمد المحقق: محمد خلف الله، د.محمد زغلول سلام الناشر: دار المعارف بمصر الطبعة: الثالثة، ١٩٧٦م.

٩- تاج العروس من جواهر القاموس للزَّبيدي، المحقق: مجموعة من المحققين الناشر: دار الهداية.

١٠-تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك، الناشر: دار التراث - بيروت الطبعة: الثانية – ١٣٨٧هـ

١١-التبيان في إعراب القرآن للعكبري المحقق : علي محمد البجاوي الناشر: عيسى البابي الحلبي وشركاه

١٢-تفسير ابن كثير، المحقق: محمد حسين شمس الدين الناشر: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون - بيروت الطبعة: الأولى - ١٤١٩ هـ

١٣-تفسير الطبري، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر الدكتور عبد السند حسن يمامة الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م

١٤-تفسير القرطبي، أو الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش الناشر: دار الكتب المصرية - القاهرة الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م

١٥-تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو الناشر: دار الكلم الطيب، بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م

١٦-التماسك النصي في سورة النساء ، وفاء محمد الغرباني، رسالة ماجستير جامعة صنعاء ٢٠٠٨م

١٧-تهذيب اللغة للأزهري الهروي، المحقق: محمد عوض مرعب الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م

١٨-خصائص التراكيب، أ.د محمد محمد أبوموسى، مكتبة وهبة للنشر والتوزيع- القاهرة، الطبعة الثامنة ١٤٣٠هـ- ١٩٩٨م

١٩-دلائل الإعجاز في علم المعاني لعبد القاهر الجرجاني الدار، المحقق: محمود محمد شاكر أبو فهر الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

٢٠-روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي (المتوفى: ١٢٧٠هـ) المحقق: علي عبد الباري عطية الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ .

٢١-سر صناعة الإعراب لابن جني الموصلي (المتوفى: ٣٩٢هـ) الناشر: دار الكتب العلمية بيروت-لبنان الطبعة: الأولى ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م

٢٢-السـيرة النبوية لابن كثير تحقيق: مصـطفى عبد الواحد الناشـر: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان عام النشر: ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٦ م

٢٣-شرح تسهيل الفوائد لابن مالك المحقق: د. عبد الرحمن السيد، د. محمد بدوي المختون الناشر: هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان الطبعة: الأولى (١٤١٠هـ - ١٩٩٠م (

٢٤-شـرح شـذور الذهب في معرفة كلام العرب لابن هشـام (المتوفى: ٧٦١هـــ) المحقق: عبد الغني الدقر الناشر: الشركة المتحدة للتوزيع - سوريا .

٢٥-شـرح كتاب الحدود في النحو للفاكهي النحوي المكي (٨٩٩ - ٩٧٢ هـــ) المحقق: د. المتولي رمضـــان أحمد الدميري، الناشـــر: مكتبة وهبة - القاهرة الطبعة: الثانية، ١٤١٤ هـــ - ١٩٩٣ م

٢٦-شـــرح المفصـــل لابن يعيش، قدم له: الدكتور إميل بديع يعقوب، الناشـــر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م

٢٧-شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، لنشوان الحميري (المتوفى: ٥٧٣هـ) المحقق: د حسين بن عبد الله العمري - مطهر بن علي الإرياني - د يوسف محمد عبد الله الناشر: دار الفكر المعاصر (بيروت - لبنان)، دار الفكر (دمشق - سورية) الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م

٢٨-الصحاح للجوهري (المتوفى: ٣٩٣هـ) تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار الناشر: دار العلم للملايين - بيروت الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م

٢٩-ضـياء السـالك إلى أوضح المسـالك لمحمد عبد العزيز النجار الناشـر: مؤسـسـة الرسـالة الطبعة: الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

٣٠-فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن رجب تحقيق مجموعة من العلماء، الناشر: مكتبة الغرباء الأثرية - المدينة النبوية. الحقوق: مكتب تحقيق دار الحرمين - القاهرة الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م .

٣١-فقه اللغة وسر العربية للثعالبي (المتوفى: ٤٢٩هـ) المحقق: عبد الرزاق المهدي الناشر: إحياء التراث العربي الطبعة: الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

٣٢-الكتاب لسيبويه المحقق: عبد السلام محمد هارون الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

٣٣-الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت الطبعة: الثالثة - ١٤٠٧ هـ ، الكتاب مذيل بحاشية (الانتصاف فيما تضمنه الكشاف) لابن المنير الإسكندري (ت ٦٨٣) وتخريج أحاديث الكشاف للإمام الزيلعي.

٣٤-لسان العرب لابن منظور الناشر: دار صادر - بيروت الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ

٣٥-مدخل إلى علم اللغة النصي لفولفجانج هنية من و ديتر فيهفجر، من مطبوعات النشر العلمي بجامعة الملك سعود ، ترجمة د.فالح العجمي

٣٦-المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للفيومي ثم الحموي، أبو العباس (المتوفى: نحو ٧٧٠هـ) الناشر: المكتبة العلمية - بيروت .

٣٧-مفتاح العلوم للسكاكي (المتوفى: ٦٢٦هـ) ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان الطبعة: الثانية، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م

٣٨-المفصل في صنعة الإعراب للزمخشري المحقق: د. علي بو ملحم الناشر: مكتبة الهلال - بيروت الطبعة: الأولى، ١٩٩٣م

٣٩-المقتضب للمبرد، تحقيق الشيخ محمد عبدالخالق عظيمة رحمه الله، نشر وتوزيع دار عالم الكتب- بيروت

٤٠-نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (المتوفى: ٨٨٥هـ) الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة

٤١-النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير، الناشر: المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م تحقيق: طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي.

فهرس موضوعات البحث

المحتويات

الملخص ٢١٣٧
مقدمة ٢١٣٩
التمهيد ٢١٤٢
المبحث الأول: بلاغة التنكير: ٢١٤٢
المبحث الثاني: بلاغة الملائكة عليهم السلام: ٢١٤٤
الفصل الأول: السياقات البلاغية للتنكير عند الملائكة في القرآن الكريم: ٢١٤٧
المبحث الأول: التنكير في سياق الثناء على الله ﷻ وتعظيمه: ٢١٤٨
المبحث الثاني: التنكير في سياق الحديث عن يوم القيامة: ٢١٤٩
المبحث الثالث: التنكير في سياق التبشير والتحذير: ٢١٥١
الفصل الثاني: الظواهر الأسلوبية في خطاب التنكير عند الملائكة: ٢١٦٢
المبحث الأول: تكاثف النكرات: ٢١٦٢
المبحث الثاني: تصاعد النكرات: ٢١٦٣
المبحث الثالث: التلاحم التنكيري: ٢١٦٤
الخاتمة ٢١٦٧
فهرس موضوعات البحث ٢١٧٢